

دراسات في بعض أعمال شفيق حبيب

الأستاذة الناقدة / داليه بشارة

" آه.. يا أسوار عكا !! "

أتساءل: أين موقع شعر شفيق حبيب في الأدب المحلي، وذلك لأن شفيق حبيب يجسدُ هذا التواصلَ وأيضاً المفارقةَ بين القديم والنوستالجيا التي تغلفه وبين الحداثة وما بعدها.

" آه.. يا أسوار عكا !! " ..لا يمكن أن يمرَّ القارئ عن " آه " المستقرّة على الغلاف دون أن يمارسَ الزفرة المريحة التي يمنحها هذان الحرفان الحليان. فهذه التنهيدة وحدها جعبة من المعاني، أولها التعبير عن الحسرة والألم، وفي نفس الوقت عن حسٍّ معين من الكبت والتستر.. هذه التنهيدة، بين ما تبثه وما تخفيه ترمزُ إلى الصعوبة والمشكلة التي تكتنف عملية التعبير التي هي موضوعُ الشعر عامة، وأساسُ الصّراع في " آه.. يا أسوار عكا !! " .

غير عادلٍ طبعاً أن أتناول جانباً من القصائد وأترك أخرى في التحليل، لكن ما أبغى إنجازَه في هذه الزاوية المعروضة لي هو

أن أخوضَ في دقائق قصيدة الديوان الأولى " زرقاء اليمامة "
دون غيرها لكونها ميكروكوزم يجسّد عالمَ الديوان كله..
بكلمات أخرى، هذه القصيدة تحوي تلخيصَ وتقديمَ كل المواضيع
التي يتصارع الشاعرُ وإياها في سائر القصائد.

وعليه يبدأ الشاعرُ قصيدته بـ " عاصفٌ حُزني "، فكلمة
"عاصف" تباغتنا بإقحامنا إلى عالمٍ مأهولٍ بالعنف، فهي على
الفور توحى بالدمار والسخط الشديد، وتهدمُ، كأول سماتِ
العنف، توقعاتنا إن كنا قد توقعنا بناءً على " آه " الموجودة في
العنوان رومانسيةً هادئةً وأحزاناً طوباوية، وما يسبب هذا
العصفُ من السخط يشرحه لنا الشاعر في:

كلُّ ما حوّلني خريفٌ

وخواء... ورياء..

وانكفاء... ودماثة..

كلُّ ما حوّلني غبارٌ

وانكسار.. وانهياء...

بهذه القائمة من الأسماء المحشورة معاً والمترابطة بنقاط
بينية يعبرُ الشاعر عن التشردم والتفكك، فكأن هذه الكلمات
قطّع تتساقط ترمزُ لزمن يتهاوى، كما أنها تبث شعوراً من

الجزع وعدم التصديق، وكلها كما هو واضح تدور حول مركز واحد هو اللا شيء، فالحريق هو انهيارٌ ودمارٌ يولد خواءً مُطلقاً، والغبار لا حجمٌ أو وزنٌ له كالخواء، وأما الرياء فهو غيابُ الصّدق، والدمامةُ غيابُ الجمال، والانكسارُ هو انهيارُ الوحدة ودليلُ التشرذم.

الشاعر إذن ينظرُ بعينِ زرقاءِ اليمامةِ إلى ما وراء مظاهرِ عالمِه الماديّ فيُبصرُ فراغاً، وفي هذه الجملةِ سخريةٌ كامنةٌ لأن الفراغَ لا يُبصرُ لكنّ غيابَ نقبِضِه هو ما يجعله ملموساً، لذلك يضيف الشاعر :

إنه الحَمْلُ الذي أفضى إلى الأوهامِ ..

والأحلامِ في رأسِ النعامةِ ...

هذه الأبيات تشرح خيبة الأمل: " الحَمْلُ الذي أفضى.." وكلمة "أفضى" نابعةٌ من فضاءٍ والفضاءُ هو الفراغُ التامُ لذا يرى الشاعر العالمَ الماديّ الذي يتشبَّثُ به الناسُ وهمًا هم يصنعونه بأنفسهم ليختموا من وهنِ الواقعِ والخواءِ، الذين هم، كالنعامة، أجبنُ من أن يواجهوه، وهذا تمامًا ما يردده الما- بعد حدثيون الذين يسخرون من الواقعية في الأدب، لأنه على المستوى الواقعي لا يوجد واقعٌ موضوعيٌّ واحد، والواقع بالنسبة لهم هو كلمةٌ عامة تصف حالاتٍ فرديةً وأحلامًا شخصية.

طبعاً لهذا نرى شفيق حبيب يصفُ في قصيدته "زرقاء اليمامة"
وقصائدَ أخرى عالم أبوكالبسي فوضوياً منهازاً متقمّصاً فيه
شخصَ النبيِّ المبشر بآخر الأيام والتي علاماتها :

فارسٌ..

حطه بعد الفرّ والكرّ حسامه ..

شاعرٌ أنكر في سوق الشعارات كلامه

والفارس كما هو مألوفٌ من تقاليد الأدب رمزٌ للقيم والأخلاق
والبحث الدائم عن العدالة، وبضياح سيفه يُعلنُ الشاعرُ عن
تقوّض القيم والعدالة التي يزود الفارسُ عنها، والشاعر في
نفس الأبيات يرمزُ إلى صدق التعبير، وقوة الكلمة كما يخبرنا
تاريخ الأدب العربيّ، وباغتراه عن لغته نلج إلى عقم اللغة،
وموت قيمة الشعر، لكن شفيق حبيب يأبى بيع كلماته شعاراتٍ
في سوق النخاسة الفكرية فيصيح :

أيها القوسُ الذي يعشقُ قبل الشدِّ والمدَّ سهامه

هاك سهمي ..

فأنا القوسُ الذي هشمَ عشقُ الأرض والأهل عظامه

القوسُ هنا يستحضرُ صورةَ الحرب، لذلك فالكلمات "شدّ.. مدّ..
هشم " حاملةٌ بالعنف وعليه فإن هذه الصورة الحربية تجسّدُ

صراعَ الشاعر مع اللغة والفكر الذي أصابَه العقمُ فهو يريد
لشعره أن يكون السهم الذي ينطلقُ ويصيب، وذلك من فرط
عشقه لأرضه وأهله، هذا العشق الذي أجبره أن يأخذ على
عاتقه رسالة التبليغ بالوعى...

لنعدُ إلى اللوحة الأبوكاليبسية التي يرسمها الشاعر، من
علامات آخر الأيام، على المستوى الفكري لا الديني، هو قدومُ
الدجالين يروجون للرياء، يقول :

كلهم يحملُ في العُنقِ شعاره.. وينادي:

أحرسُ الفكرَ الفلسطينيَّ

في جوفِ محاربه..

ولعلَّ هذه الصورة شديدةُ الوقع في نفس الشاعر الذي يعاني:

كِدْتُ أنسى فارساً يأتي من الآلام

كي يفدي حياضه

كِدْتُ أنسى اسمي ورسمي

وجذوري وقبوري

فكلمة "كِدْتُ" ترسم في الذهن شخصاً يترنح على طرف الهاوية
ويتراجعُ بمعجزة، توحى بمصيبةٍ تمنع في آخر لحظة، وهذه
المصيبةُ بالنسبة للشاعر هي السقوطُ إلى فقدان الذات

والاستسلام إلى الخواء الذي يُحيطُ به، ولعل السقوط إلى
الهاوية مُغرٍ جداً لأن البقاء في هذا العالم المُنهار ومحاولة
تقويمه صراعٌ عسيرٌ فالشاعر يقول بأسى:

فإني شاعرٌ أعطى

ولم يأخذ سوى جمرِ الطهارة

والفكرةُ عينها تتكررُ في قصيدة "احملْ صليبك!!" التي يتجسّدُ
فيها الشاعر مسيحاً يُصلبُ ليحملَ خطايا الآخرين :

احملْ صليبك يا شفيق!!

فلست أفضل ممّن اقتسموا ثيابه

ماذا اجتنيبت من الكتابة؟؟

ماذا اجتنيبت من العقيدة

والقصيدة

غير جوعك والتمزّق والكآبه.

أصبحت العقيدة والكتابة التي تحملُ لبَّ العقيدة صليباً يحمله
الشاعرُ في مسيرة حياته ويلاقي حتفه عليه لأنها الرسالة التي
يريد أن يقدّمها للناس بواسطتها إلى الوعي وينكرها الناس،
ينكرونها لأنهم أضعف من أن يجابهوا "التمزّق"، هذا التمزق
الذي ينتج عن الصّراع مع ما تكتنزه الذات من قيم في عالمٍ بالٍ،

فهذا التمزقُ نابعٌ عن الإدراك أن مقومات العالم الماديّ وهمٌ وزيف.

فكرة التمزق هذه نجدُها متجسّدةً في حالة الشيزوفرانيا الرمزيّة التي تصوّرُها الأصواتُ المختلفةُ في قصيدة " احمَلْ صليبك " وتبيّنُ أكثرُ في قصيدة "تراكمات" ، حيث يقول الشاعر:

أتراكمُ أجزاءً أجزاءً

أطلالي تعلو أطلالي...

أتلاشى مثل شعاع الضوء.

هذه الأبياتُ تعيدُ إلى الذهن قائمةَ التشردِّمِ والتساقطِ التي تفتتحُ قصيدةَ الديوان الأولى، وشعاعُ الضوء هنا يرمزُ للحقيقة التي بدأت تختفي معالمُها.

عدمُ التيقنِ إذن من ثبات وخلود الحقيقة، حقيقة الإنسان، الكونُ هو ما يسبّبُ الضياعَ والاعترابَ الروحيَّ الوجوديَّ الذي نبصرُه.

في قصيدة " الأدوار " يناجي فيها ذاته: " تنجلي صحراءُ أهلي في ضلوعي " الصحراءُ وهي نقيضُ الخصبِ والحياة تقطنُ وجدانه لأن ضياعه فكريٌّ أخلاقيٌّ، كما أن الصحراءَ ترمزُ لفقدان الخصبِ على المستوى اللغويّ التعبيريّ، الذي رمزَتْ إليه سابقاً فاللغةُ هي ما يصنعُ الحضارةَ كما أكد فوكو، لكن في

الزمن الميت الذي يصفه الشاعرُ تصبح اللغةُ ستارَ دخانٍ يُخفي
المعاني كما وصف بيكيت، لأنه كما يقول شفيق حبيب :

قَيَّدَتْ شَفْتَيْكَ أَحْكَامَ الرِّقَابَةِ..

شاءوا مصادرةَ الحروفِ

وقتلَ فكركَ في السَّجون..

إذن...

كيف لا نصبحُ في السيركِ قروداً

وعلى البابِ قعوداً

باسم "إبداع الأدب"؟؟

ويرثي تراثَ الشعرِ وبنيتهُ الصَّلْبَةَ في

ماذا يبقى من طعمِ الشعرِ ونكهتهِ

إن مات المبنى والمعنى

وأضاعَ الشاعرُ أوزانه؟؟

وهذه الأبياتُ في قصيدة "زرياب والخفاش الأسود" هي خيرُ
تعريفٍ لحركة ما بعد الحداثة في الفن والأدب حيث سحرتْ من
كل القوالب البنائية واحتفت بالفوضوية واللابنائية والتشردم
كأصدق تعبيرٍ عن الإنسان، بيد أن الشاعرَ لا يقبل هذه

الفوضوية واللابنائية والتشردم بسذاجة، هو يواجهها بذعرٍ
وجزعٍ، وكل الديوان حلبة يصطرعُ فيها الشاعرُ مع إدراكه أنَّ
عالمه وقيمه تتناثرُ مع حنينه للقديم، للوحدة الجمالية والقيم
الفروسية، ولعلَّ وعيه وتيقنه من عبثية هذا الاصطراع هو ما
يجعله يجدُ في الصمتِ بديلاً شرعياً للوقوع في فخ التدجين
الفكري، فالصمتُ على الأقل يُخفي الانكسارَ والتمزقَ الداخليَّ
ويُعلنُ الرفض :

صمتي السلاح،

الزَّاد.. بوصلتي إلى بعث التآلق في المجامرُ

صمتي التمرُّد كافرًا

في وجه أرباب القوارض

هذا الصَّمْتُ إذن ليس نهائياً لأنه لو كان كذلك لما وجدنا هذا
الديوان بين أيدينا، وحتى صرخته "قم حطم عودك يا زرياب!!"
هي لحظة التأزم الوجودي التي تسبقُ الالتزام للقضية وللصِّراع
الفكري القومي، والأخلاقي...

لنعدُ في هذه المرحلة من التحليل إلى القصيدة الأولى ولنطرحُ

السؤال التالي : لماذا يختارُ الشاعرُ زرقاء اليمامة ؟

هل هو حنينه للتراث؟ أم رغبته في أن ينسبَ لنفسه قدرةً
خارقةً على رؤية ما وراء الزمان والمكان ليُعطي مصداقية
للصُّور الشعرية التي يعرضها أمامنا ؟؟

لا أظنُّ أن هذا هو فقط ما في الأمر، لأن اختياره لزرقاء
اليمامة يلجُّ من المأساة التي يعي الشاعرُ إمكانية حدوثها، فقوْمُ
زرقاء اليمامة لم يصدّقوا نبأها أنّ قوْمًا سيغزونهم قريبًا،
فأتكروا ووقعوا تحت وطأة الغزو ليندموا بعد فوات الأوان،
وهذا ما صنع التراجيديا التي لا يريدُ الشاعرُ أن تقعَ في أهلهِ
وأرضه، لذلك نراه يقول بسخط:

إنني الناعي..

وحولي كلهم أعمى ويدعو..

إنما العمياءُ زرقاءُ اليمامة...

مرة أخرى نرى صورة النبيِّ الأعمى الذي يكون المُبصِرَ الوحيدَ
للحقيقة، كما في أسطورة أوديبوس التي تتحول إلى مأساة، لأن
إنذار النبيِّ يُنكرُ ويُسخر منه.

لكن شفيق حبيب لا يبغى الاستسلام لعلاماتِ المأساة، فهو ينادي
بإيحاء رمزيٍّ في قصيدة "سأنفخُ في البوق":

سأنفخُ في البوقِ

حول قلاعٍ وأسوارٍ مهدٍ الضلالُ

سأنفخُ حتى التصدّع...

والبوق طبعًا بإيحاءاته الشعرية هو الشعر، وإيحاءاته الدينية هو إعلان يوم القيامة، وهذه صورة سوداوية، لكن الشاعر يدمج مجمل الإيحاءات الأدبية والدينية ليخلق بارقة أمل حقيقية، فهو يريد لشعره، كبوق إسرافيل الذي يبعث الأرواح من الأجساد الميتة، أن يبعث القيم والصدق من جيف الرِّياء والزَّيف. بهذا الانبعاث الجديد الذي يصوره يريد الخروج من العالم الأبوكالپسي إلى عالم جديد حرّ.

وإذا أكملنا هذه الدائرة نرى الانبعاث مرموزًا إليه في صورة الحمامة في القصيدة الأولى: "عاصفٌ حزني كأشواق الحمامة" فالحمامة هي الروح القدس التي تبشر نوح بانتهاء الطوفان وولادة عالم جديد.

حتى أكثر فاني أجد فكرة الانبعاث مطبقة في تلك القصائد من الديوان المنظومة بالأسلوب الشعري التقليدي القديم بينما ترثي أمجاد العرب والحنين الصارخ إلى ما هو أصيل وقديم.

وفي هذه النقطة أريد أن أختتم هذا المقال لأن شفيق حبيب بصدق إنساني يحقق التواصل بين الماضي والحاضر ويصطرع مع حنينه وتمرّقه في كل قصيدة من الديوان لبيت أمة وفكرته بكثافة وعمق.

جريدة "كل العرب" النصراوية

١٩٩٥-١-٢٧